

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ ۖ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

كُلُّ لَّهُ قَلِيلٌ ۚ﴾ [البقرة: 116]

❖ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

بعد بيان اتهام أهل الكتاب بعضهم لبعض، ناسب ذكر بعض أقوالهم وأقوال المشركين الذين قاسموهم العداء لدين الإسلام، في الافتراء على الله تعالى في أخص صفاته، وهي عدم اتخاذه الولد، فنسبوا الولد إليه، وبعد بيان أن المشرق والمغرب لله تعالى، ناسب أن يذكر ملكه للسموات والأرض وعدم احتياجه لأحد من العالمين، فكما كان ذكر المشرق والمغرب دليلاً على قبول توجه المتوجهين، كان ذكر ملك السموات والأرض دليلاً على افتراء المفترين في نسبة الولد إليه سبحانه عما يقولون.

❖ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿اتَّخَذَ﴾: فعل ماضٍ مزيد على وزن (افْتَعَلَ)، وجذره اللغوي (أخذ)، يُقال: "تَخَذْتُ مَا لَا أَيْ كَسْبَتُهُ، أُلْزِمْتُ التَّاءَ الْحَرْفَ كَأَنَّهَا أَصْلِيَّةٌ"⁽¹⁾ وقيل غير ذلك، وهو أن هذا الفعل ﴿اتَّخَذَ﴾ أصله من الأخذ، ثم، أبدلت الهمزة تاء⁽²⁾، ومصدره الاتخاذ "افتعال" من الأخذ، إلا أنه أُدغم بعد تليين الهمزة وإبدال التاء، ثم لَمَّا كَثُرَ الاستعمالُ على لفظِ الافتعالِ تَوَهَّمُوا أَنَّ التَّاءَ أَصْلِيَّةٌ؛ فَبَنَوْا مِنْهُ فَعَلَ يَفْعَلُ، قالوا (تَخَذَ) يَتَخَذُ"⁽³⁾ وهو فعل ينصب مفعولين، من أفعال التحويل والتصيير.

(2) ﴿وَلَدًا﴾: اسم ثلاثي، زنة (فعل)، جذره اللغوي (ولد)، وأصل معنى هذا الجذر هو "دليل النَجْلِ والنَّسْلِ، ثُمَّ يُقَاسُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ مِنْ ذَلِكَ الْوَلَدِ، وَهُوَ لِلوَاحِدِ وَالْجَمِيعِ، وَيُقَالُ لِلوَاحِدِ وَلَدٌ أَيْضًا"⁽⁴⁾ ومن معانيه "الابنُ والابنة، والوَلَدُ: هُمُ الْأَهْلُ، وَالْوَلَدُ"⁽⁵⁾ أي: أن لفظ الولد صالح للذكر والأنثى؛ ليدخل فيه مقالاتهم جميعاً.

(1) الأزهرى، تهذيب اللغة: (أخذ).

(2) السمين، غمدة الحفاظ: 1/258.

(3) الرِّيدي، تاج العروس: (أخذ).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولد).

(5) الرَّاغب، المفردات: (ولد).

و"الوليد الصَّبِيّ حين يُولَد، والوَلَد ما وُلِدَ أيّا كان"⁽¹⁾ والمعنى في الآية هو ما زُعم من اتّخاذ الله الولد، بمعنى الابن، تنزّه الله عن ذلك، وإنّما هو قول اليهود والنصارى وأضرابهم.

(3) ﴿سُبْحَنَهُ﴾: مصدر (سَبَّحَ يَسْبُحُ) مضاف إلى الضمير العائد عليه تعالى، وجذره اللغويّ من (سبح)، "وسَبَّحَ الرَّجُلُ تَسْبِيحًا إذا عَظَّمَ اللهَ ومَجَّده، ولَسُبَّحان في اللُّغة مَوَاضِعُ: سُبَّحان: تَنَزَّيه وتَبَرُّة"⁽²⁾ وهو هنا كذلك؛ ففي قوله سبحانه بعد اتّهامهم الباري ﷻ باتّخاذ الولد -وهذه فِرْيَةٌ عظيمة- فسُبَّحان "أُطلق في التعبير عن التَّنْزِيهِ العام تمجيدًا لله ﷻ بالصَّلَاة والذِّكْر"⁽³⁾.

(4) ﴿السَّمَوَاتِ﴾: جمع بالألف والتّاء، مفردة سماء، وأصله (سمو) لأنّه من الفعل (سما يسمو) فألّفه منقلبة عن واو، و" (السَّماء): هِيَ سَقْفُ كُلِّ شَيْءٍ، وكلُّ بَيْتٍ، ورواق البيت، والسَّحاب، والمَطَر، ويطلق على السَّبْعِ سَمَاوَاتٍ"⁽⁴⁾ وهي ما يقابل الأرض، وهي أعلى كلّ شيءٍ، وتكون مؤلفة من طبقات؛ لذلك ذكّرت مجموعة في كثير من آي القرآن الكريم.

(5) ﴿وَالْأَرْضِ﴾: اسم ثلاثي مُجرّد، أصله الهمزة والرّاء والضّاد، ومعناها "الجِرمُ المُقَابِلُ لِلسَّمَاءِ، وَجَمْعُهُ أَرْضُونَ، وَلَا تَجِيءُ مجموعةً في القرآن، ويُعبّرُ بها عن أسفلِ الشَّيْءِ كما يُعبّرُ بالسَّماء عن أعلاه"⁽⁵⁾ والمقصودة هنا الأرض المعروفة التي يعيش عليها البشر.

(6) ﴿قَلْبُوتُونَ﴾: جمع مذكر سالم لاسم الفاعل (قانت)، جذره اللغويّ (قنت) قَتَتَ يَقْنِتُ قُنُوتًا و"الأصل فيه الطّاعة، يُقال: قنت يقنت قنوتًا؛ ثم سُمِّي كل استقامة في طريق الدِّين قنوتًا"⁽⁶⁾، ومعنى ﴿قَلْبُوتُونَ﴾ في الآية: مَنْ يكون منهم "الخشوع والإقرار بالعبوديّة، والقيام بالطّاعة التي ليس معها معصية"⁽⁷⁾.

(1) جَبَل، اللُّعْجَم الاشتقاقي للوَصَل: (سبح).

(2) ابن دُرَيْد، جَمْهَرَةُ اللُّغَةِ: (بحس).

(3) جَبَل، اللُّعْجَم الاشتقاقي للوَصَل: (سبح).

(4) الكفويّ، الكَلِمَات، ص: 507.

(5) الزّاغِب، للفردات: (أرض).

(6) ابن فارس، مَقاييس اللُّغَةِ: (قنت).

(7) جَبَل، اللُّعْجَم الاشتقاقي للوَصَل: (قنت).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِي:

تذكر الآية قول مَنْ قال: إِنَّه تعالى اتَّخَذَ وَلَدًا، وهي نازلة فيهم، وهم "اليهود حيث قالوا عَزِيزُ ابنِ الله، وفي نصارى نَجْران حيث قالوا المسيح ابن الله، وفي مشركي العرب حيث قالوا الملائكة بنات الله"⁽¹⁾، وَلِعَظَمَ مُرْتَكِبُهُمْ في هذا القول جاءت ما بعدها من جملٍ مُنَزَّهَةٍ اللهُ تعالى بقوله: ﴿سُبْحَنَهُ﴾؛ وهي عبارة تُعْجِبُ وتنزيه لله عن كلِّ النَّقَائِصِ والعيوب، ثم جاء بالحرف العاطف ﴿بَلْ﴾؛ فهو يُفِيدُ الإِضْرَابَ الانتقالي إلى تنزيه ثانٍ، ويحتملُ الإِضْرَابُ الإِبْطَالِي لإِبْطَالِ ما يَقُولُهُ أَهْلُ الْكُتُبِ والمُشْرِكُونَ.

ثم أخبر الحقَّ رَدَّه على هذه الفرية العظيمة بأنَّ السماوات والأرض له سبحانه، وهو المَالِكُ يتصرَّفُ فيهما كيفما يشاء، ومن جملة ما فيهما العَزِيزُ وعيسى والملائكة؛ لِيُسْقِطَ ما ادَّعَوْهُ من اتِّخَاذِهِ الْوَلَدَ، تعالى اللهُ عما يَقُولُونَ علوًّا كبيرًا.

❁ الإِبْضَاحُ اللَّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

توجيه المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

ذكرُ الواوِ
وعدمُه عائدٌ
إلى المعنى الَّذي
يُفَرِّقُهُ السِّيَاقُ

ابتدأت الآية بذكر الواو: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ﴾، بخلاف آية يونس ففُصِّلَتْ: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [يونس: 68]، والفرق أنَّ آية البقرة معطوفة على القول السابق الشَّامِلِ لأقوال اليهود والنَّصَارَى والمُشْرِكِينَ؛ "اليهود في قولهم: ﴿عَزِيزٌ أَبْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: 30] والنَّصَارَى في قولهم: ﴿الْمَسِيحُ أَبْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: 30]، والمُشْرِكِينَ في قولهم: الملائكة بنات الله"⁽²⁾، أمَّا آية (يونس) فهي في كِفَارِ قَرِيشٍ؛ فلا تشمُلُ قول اليهود والنَّصَارَى⁽³⁾، وهي بيانٌ للآيات السابقة. ومن هنا يتبيَّن سببُ العطفِ وعدمِهِ، وأمَّا آية الكهف: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: 4] فهي صلةُ الموصولِ؛ فلا يصحُّ أن تتوسَّطَ الواوُ بين الاسمِ الموصولِ وصلته.

(1) التَّبَسَّاطُورِي، أسباب نزول القرآن، ص: 39.

(2) الواحدي، الوجيز، ص: 128.

(3) الدَّزَّة، تفسیر القرآن الكريم إعرابه وبيانه: 4/345.

توجيه القراءات القرآنية:

قرأ الجمهور بالواو، بينما قرأ ابن عامر الشامي بحذفها⁽¹⁾، وتوجيه قراءة الجمهور سبق بيانه في كونها عطفت القول على أقوال السابقين من أهل الكتاب والمشرّكين، أمّا قراءة الشامي فهي مفصولة على شبه كمال الاتصال، فهي جواب ناشئ عن سؤال مُقدّر، "فكأنّ السامع بعد أن سمع ما مرّ من عجائب هؤلاء الفرق الثلاث - جمعاً وتفرّيقاً - تسنّى له أن يقول: لقد أسمعنا من مساويهم عجباً؛ فهل انتهت مساويهم أم لهم مساو أخرى؟"⁽²⁾، والقراءتان في غاية البلاغة والفصاحة، وقد نزلت كل قراءة منزلة الآية التامة، فقراءة الجمهور عطفت قولاً على قول، وقراءة الشامي أجابت عن سؤال مُقدّر يتصور وقوعه السائل من أولئك الظالمين؛ فقراءة أتت بالإخبار المحض لمن لا يتصور ذلك، وقراءة أتت بالجواب عن سؤال مُقدّر، فأدّت كل قراءة وظيفتها في خطاب الناس على قدر معارفهم وعلومهم.

﴿سُبْحَنَهُ﴾ مصدر منصوب للتوكيد:

قوله تعالى ﴿سُبْحَنَهُ﴾ مفعول مطلق للفعل (أسبح سبحان الله)، وهو "تنزيه له عن ذلك وتبعية"⁽³⁾ عن قولهم وافترائهم ذاك، وهو افتراء عظيم بمنزلة الشرك، بل هو شرك، ولا أعظم من الإشراك بالله؛ ولذلك جاء بهذه العبارة، ومعناه "تقدّس وتنزه عما زعموا تنزيهاً بليغاً"⁽⁴⁾ بأقوى صورة؛ فإنّ أصل "التسبيح لله عند العرب التنزيه له من إضافة ما ليس من صفاته إليه، والتبرئة له من ذلك"⁽⁵⁾ وإنّ المفعول المطلق، أو المصدر المنصوب - كما في مصطلحات الأقدمين - الغاية

بلاغة التّكامل
الدّلالي بين
القراءات، وأثره
في الخطاب
التّواصلي مع
المتلقين

التعبير
(سبحانه) تنزيه
بأقوى صورة لما
فيه من أنواع
التوكيد

(1) ابن مجاهد، السبعة، ص: 169.

(2) ابن مجاهد، السبعة، ص: 169.

(3) الزمخشري، الكشاف: 1/180.

(4) الفاسمي، محاسن التأويل: 1/232.

(5) ابن جرير، جامع البيان: 1/474.

منه التوكيد⁽¹⁾، ثم إنَّ فعله "أَسْبَحَ تَسْبِيحًا عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ"⁽²⁾ أو يَسْبَحُ أو نحوه يُدُلُّ على المبالغة والتكثير، وذكر أنَّه "عَلَّمَ لِلتَّسْبِيحِ كُعُثْمَانَ لِلرَّجُلِ"⁽³⁾ وهذا ممَّا يزيده توكيدًا.

معنى حرف الإضراب:

دلالة (بل)
بين الإبطال
والانتقال

تحتمل ﴿بَل﴾ الانتقال والإبطال، فإنَّ رجَعَ الكلام إلى: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ فهو إضراب انتقالي؛ انتقالٌ من تنزيهه إلى تنزيه آخر، وإنَّ رجَعَ الكلام إلى: ﴿أَتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فهو إضرابٌ إبطالي⁽⁴⁾، و﴿بَل﴾ هي العاطفة التي تعطف الحكم فقط، لكنها تنفي ما قبلها، وتثبت ما بعدها، تنفي افتراءهم اتَّخَذَ الولد له سبحانه، وتثبت "كون ما في السموات والأرض مُلْكًا له، وهذا ينافي أن يكونَ فيهما ولدٌ له"⁽⁵⁾.

معنى اللّام الجارّة:

قوله تعالى: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ "أي: له كلّ ما سواه على سبيل الملك والخلق والإيجاد والإبداع"⁽⁶⁾، واللّام في ﴿لَهُ﴾ حرف جرٌّ يفيّد الملك والاختصاص.

فائدة تقديم المتعلّق ﴿لَهُ﴾ على المبتدأ:

اختصاص ملك
ما في الكون به
وحده سبحانه

في قوله: ﴿لَهُ مَا﴾ تقديم الخبر على المبتدأ، وغايته الاختصاص والحصر، أي: يملك وحده لا غيره "ما هو موجود؛ فإنَّ السماوات والأرض هي مجموع العوالم العلوية والسفلية"⁽⁷⁾ فكلّ ما في الكون له وحده تعالى، فالتقديم أفاد قصر الملك عليه سبحانه.

(1) ابن الحاجب، الكافية، ص: 18.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 1/624.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/244.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/162.

(5) ابن القيم، بدائع الفوائد: 14/573.

(6) الرّازي، مفاتيح الغيب: 4/23.

(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/685.

سر استعمال ﴿مَا﴾ مع ﴿قَلْبُتُونَ﴾ في سياق واحد:

جاء التعبير بـ: ﴿مَا﴾ التي يغلب عليها الاستعمال في غير العقلاء في قوله تعالى: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَلْبُتُونَ﴾، بينما استعمل جمع السلامة في ﴿قَلْبُتُونَ﴾، وذلك أنه لما أثبت اختصاصه بملكية ما في السموات والأرض ناسب تغليب غير العاقل؛ إذ المقام مقام ملك، بخلاف جمع السلامة في ﴿قَلْبُتُونَ﴾، فالمقام مقام عبادة وخضوع، وهي ما يستدعي استعمال ما يدل على العلم:

نكتة تقديم ﴿السَّمَوَاتِ﴾ على ﴿وَالْأَرْضِ﴾:

قدم ذكر ﴿السَّمَوَاتِ﴾ على ﴿وَالْأَرْضِ﴾؛ باعتبارها الأشرف؛ لما تحويه من المخلوقات العظيمة كالعرش، والأكبر والأعظم؛ فالأرض بالنسبة إلى السموات كالخرزة في العقد، وهو ما جرى في غالب آيات القرآن الكريم.

بلغة الفصل بين الجمل:

فصّلت جملة ﴿كُلُّ لَهُ قَلْبُتُونَ﴾؛ "لقصد استقلالها بالاستدلال حتى لا يظن السامع أنها مكملّة للدليل المسوق له"⁽¹⁾، وهو تأكيد في المعنى لما سبق من قوله ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ وهو إثبات بعد إثبات، وأنه تعالى مُنَزَّه عما يقولون، فهو مُنَزَّه عن اتخاذ الولد؛ لأنه يملك ما في السموات والأرض؛ ولأن الجميع له عابدون طائعون قانتون فكيف يتخذ ولداً سبحانه!.

نكتة الجمع في ﴿قَلْبُتُونَ﴾:

أتى الخبر ﴿قَلْبُتُونَ﴾ جمعاً حملاً على المعنى، ولو حمّله على اللفظ لقال: قانت، ونكتة ذلك إفادة العموم بعد العموم، فـ: ﴿كُلُّ﴾

تغليب غير
العقلاء في مقام
الملك والخلق،
والعقلاء في
مقام العبادة
والقنوت

تقديم الأشرف
والأكبر
والأعظم، إذ
هو الحاوي
للمعطوف

استقلال الجملة
بالاستدلال

مجيء الجمع
بعد الجمع
يُعطي دلالة
الاستغراق

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/685.

من ألفاظ العموم، و﴿قَنُتُون﴾ جمعٌ وهو يُفيد العموم كذلك، ومجيء الجمع بعد الجمع يعطي دلالة الاستغراق، فلا أحد إلا وهو قانتٌ لله سبحانه وتعالى، "فالمخلوقات كلها تقنت لله، أي تخضع وتطيع"⁽¹⁾.

تقديم الجارّ والمجرور على الخبر:

إفادة الحصر
والاختصاص

قُدِّمَ المتعلّق ﴿لَهُ﴾ على الخبر؛ لإفادة الحصر؛ فالكلُّ ﴿قَنُتُون﴾ له دون سواه سبحانه، وهو الأنسب كذلك برؤوس الآيات.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/334.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني، سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1444هـ - 2023م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2023م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم

الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2023.

مج. 2، 804 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 8-53-798-9948-978

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

مج. 2: سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-

ألفاظ أ-العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي: 8-53-798-9948-978

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984852 بتاريخ 2023/03/10م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»